ز — لا يقصر البرنامج تنمية التجارة الخارجية على توسيع التبادل مع البلدان الاشتراكية . بل يؤكد استعداد تشيكوسلوفاكية للتعاون مع " جميع بلدان العالم " التي " يهمها الامر " فيضع في حسابه مختلف اشكال التعاون الصناعي والمالي ، بما في ذلك تبادل براءات الانتاج والقروض . وهو يصنف بين الاهداف الاولى ، في هذا المجال ، التوصل الى جعل العملة التشيكية عملة تقبل التحويل .

حـ — يرى البرنامج الا يؤدي تنفيذ المهمات الآنفة الذكر الى " مراكمة الكثير من المشاكل الاجتماعية " ، فيتعهد بزيادة الاجور الحقيقية زيادة نسبتها المئوية ٢٥ الى ٣٠ بالمائة ، ولا يخفي ان بعض الاسعار سوف يخفض وبعضها الاخر سوف يرفع . وهو يعد المواطنين بأنهم سيكونون احرارا في اختيار نمط حياتهم والانواع التي يستهلكون من السلع كما يعد المؤسسات بأنها ستكون مستقلة نسبيا عن الاجهزة المركزية . وهو يضمن " لمختلف الفئات اللاجتماعية ومجموعات العاملين الحق والمكنة الحقيقيين في صياغة مصالحها الاقتصادية والدفاع عنها " . وهو يخص الفنيين ، ها هنا ، بلفته ، فيعدهم بأن مستوى الاعداد والاختصاص ، سيولى بعد الان من الاعتبار ما لم يكن يولاه في السابق وان التحديد العددي لمن يحق لهم تولي مختلف المناصب من غير الشيوعيين سوف يلغى هو الاخر .

ط — يعيد البرنامج ما سبق اعلانه في شأن مقاطعة سلوفاكيا ، من اتجاه نحو احترام تميزها الحضاري وتعديل ارتباطها بالمقاطعتين الاخريين (بوهيميا ومورافيا) الى الكنفدرالي ، بحيث يتاح لها إمكان حكم ذاتي اوسع ونمو يسهل اللحاق بمستوى المقاطعتين الباقيتين . هذا ولا ينسى البرنامج حقوق الاقليات من اوكرانيين وهنغاريين والمان ، فيعد برعاياتها وان كان يؤكد ان القرارات تتخذ وفقا لارادة الاكثرية ...

برنامج العمل هذا ، جاء كما ألمحنا تتويجا لسلسلة طويلة من الاحداث ، حولت ، أو هي ما تزال تحول مسار النظام السياسي في تشيكوسلوفاكيا . ولعلنا ان شئنا النظر في اصول هذه الاحداث ومكانها من تطور المجتمع التشيكي ، لوجدنا أنفسنا مسوقين الى النظر في خطة الاصلاح الاقتصادي التي بدأت محاولات تنفيذها لسنوات خلت . فان مستلزمات السير على هذه الخطة هي ، في نهاية التحليل ما ابرز التعارض بين ستالينية الحكم السياسي في البلاد وبين النفس الجديد الذي احلّته الخطة ، أو حاولت ، في المؤسسات الاقتصادية وسائر أماكن العمل . ونحن سوف نحاول استخراج خط التطور هذا في القسم التالي من هذا البحث . غير اننا نسرد اولا احداث فترة التوتر الاخيرة ، متوخين البقاء على مستوى الأزمة السياسي ، ثم نعمد في قسم أخير الى تبيّن ما يمكن استجلاؤه ، حاليا من أفق الأحداث ، حينما ينظر اليها داخل اطارها .

منذ بدء الحملة ضد الستالينية كانت منظمات الحزب التشيكي تعيش حياة مزدوجة . فالرقابة المعتادة وطاعة المستويات الدنيا لتوجيهات الاجهزة العليا تسودان العمل الرسمي في هذه المنظمات بينما النقاش الفعلي يجري على هامش العمل المنظم متيحا المجال لتكوين معارضة كان شأنها يتعاظم سنة بعد سنة . لكن التصور الوحداني السائد لسياسة الحزب وما يتبعه من أشكال الرقابة والحظر أرغمت هذه المعارضة على البقاء دون خط سياسي ولا تنظيم ولا وسائل تعبير . والحق ان المعارضة كانت ذات شقين : فريق يقول بأن التغيير ينبغي ان يتم من داخل الحزب ، اذ تنشط العناصر المتحررة لتسلم المراكز المهتمة فيه ، وفريق يرى ان الحملة ضد الستالينية قد أفسحت مجالا ، وان ضيقا ينبغي التحرك فيه لاثارة الرأي العام على اسس الستالينية التي كانت ما تزال أسس النظام . أما الشق الاول فكان يضم عناصر من قيادة الحزب نفسه وأما الشق الثاني فكانت العناصر المتحركة فيه من بين الكتاب

والفلاسفة والفنانين . ولقد اخذ هؤلاء مبادرة الاعلان المنظم عن معارضتهم وعمل اولئك على الاستفادة من آثار المبادرة الى ان تسلموا السلطة . ولم يكن المثقفون ، قبل ذلك ، يعلمون بوجود معارضة منظمة داخل اللجنة المركزية .

كان موعد المؤتمر الرابع لاتحاد الكتاب في شهر حزيران من العام الماضي . ولم تكن قوة التيار المعارض داخل الاتحاد خافية على قيادة الحزب ، فمحمد هندريش وهو المسؤول الايديولوجي فيه ، الى تنظيم حملة واسعة ضد أكثر العناصر المعارضة نشاطا وأعلن ان الأبحاث في المؤتمر ينبغي أن تقتصر على "نقد ايجابي " للسياسة الثقافية ، دونما تعرض لشؤون الحزب والحكم . لكن غالبية الخطباء رفضوا الالتزام بهذا الحد ، فما كان من هندريش وصحبه الا ان قاطعوا المؤتمر ، ومن الحزب الا ان رفض الاعتراف بالمجلس المنبثق عن المؤتمر رغم انه انتخب بأكثرية ساحقة . وكالعادة ، في مثل هذه الأحوال ، بقي الجمهور على جهل مطبق بما دار بين المؤتمرين فلم تعلن الصحافة الا عن افتتاح المؤتمر واختتامه ولم تنشر الا خطاب هندريش في جلسة الافتتاح . لكن خطبة فاتشوليك ، وهو رأس الكتاب المعارضين ، ما لبثت ، كالعادة ايضا ، أن أخذت تتنزه بين أوساط براغ المثقفة " تحت المعطف " .

ولم يتهاون جهاز الحزب المركزي ابدا بشأن ما جرى في المؤتمر ، بل ان اللجنة المركزية دعيت الى عقد دورة في آخر أيلول كان الجانب الاساسي من أعمالها يتناول السياسة الثقافية . ولم يتوان نوفوتني نفسه ، بين ذلك ، عن التنديد بالكتاب بل تقاسم وهندريش مهمة الفتح وازجاء الاتهامات . وكانت حصيلة ذلك كله أن طرد ثلاثة من مشاهير الكتاب التشيكيين ، بينهم فاتشوليك ، من الحزب بينما أحيل آخرون الى المحاكمة الحزبية وحل مجلس المجلة الأدبية "ليتيرارني نوفيني " ، وهي وكر الكتاب المعارضين ، وتغيير مديري دارى النشر الرسميتين وأسست دار جديدة وضعت تحت اشراف أمانة الحزب المباشر وشددت الرقابة على الصحف والمطبوعات الخ ... غير ان جماعة الحكم ارتكبوا بعد ذلك ، في ما يبدو ، خطيئة فادحة . فلقد أخذوا يدعون لوجهة نظرهم ، في تنظيمات القواعد ، دون أن يجرؤوا على نشر النصوص التي يتناولونها بالتنديد ، وكان ان هذه التنظيمات أخذت تطلب معلومات أوفى حول المسألة ، بينما طفقت الشخصيات العلمية والأدبية ، على اختلاف مشاربها ، تعلن تضامنها مع الكتاب المغضوب عليهم وعمد الكثيرون من القراء الى مقاطعة مجلة " ليترارني نوفيني " بادارتها الجديدة .. ولم يجد جماعة الحكم مخرجا سوى التقليل من اهمية القضية كلها وبذل المحاولات المتواترة لطمسها . أما المعارضون في اللجنة المركزية ، فقد ارتأوا ان من الأسلم ، حتى اشعار آخر ، ان يفصلوا بين قضيتهم وقضية الكتاب ، فصرّحت اللجنة بالاجماع على التدابير التي اتخذت ، في شأن هؤلاء .

غير انهم ما لبثوا أن ادركوا ان فرصة التحرك قد حانت . فلقد دعيت اللجنة المركزية الى عقد دورة جديدة في آخر تشرين الأول . وكان عشية الدورة ، أن انفجرت تظاهرة طلابية تحتج على سوء التدفئة وتكرر انقطاع الكهرباء في مساكن الطلاب ، ولم تحتمل أعصاب الحكم هذا السلوك ، فقامت الشرطة تقمع التظاهرة بقسوة بالغة زادت التوتر القائم حدة على حدة . ثم انعقدت الدورة وفيها قام دوبتشيك للمرة الاولى ، يتوجه بالنقد الى نوفوتني شخصيا . أما الذريعة فكانت موقف هذا الاخير من المشكلة السلوفاكية . وفي أعقاب الدورة أخذت اقالة " ملك بوهيميا الأحمر " من منصبه ، كأمين للحزب تبدو أمرا معقولا . لكن احتمالات أخرى كانت بطبيعة الحال واردة . فاما اقالة الرجل والسير نحو الديمقراطية واما تسوية من التسويات بين الفريقين واما

اقصاء الفريق المعارض . ولقد انفضت الدورة دون أن يستقر الرأى على أى من هذه الحلول وسافر نوفوتني الى موسكو لحضور الاحتفالات بيوبيل الثورة البلشفية ، ثم حدد موعد انعقاد جديد للجنة المركزية في التاسع عشر من كانون الأول .

ها هنا بدأت الأحداث تدخل طورا من الخطورة جديد الجلرجنيف ، في التاسع من كانون الأول ، الى القيام بزيارة مفاجئة لعاصمة التشيكية ، كانت غاية منها الاطلاع على ما يجرى وتطويق الجوانب الخطرة من الوضع ، اذا أمكن ذلك . فأما نوفوتني فقد طمأنه الى متانة الحكم القائم وأما دوبتشيك فقد وضعه وجها لوجه امام ميزان القوى الجديد . هكذا عاد الرجل الى موسكو دون أن يعد ايا من الفريقين بالدعم .. كل هذا والاتجاه المعارض يتعاظم أمره بعد أن اثبت وجوده بقوة في قيادة الحزب . واذ شعر نوفوتني بأن الرياح لا تجرى وفق ما يشتهي ، عمد ، أمانة منه لتراثه ، الى تعبئة عسكرية جزئية ، أقرها منفردا ، كي يتاح له حين تحين الساعة ان يسحق الحركة المعارضة التي اخذ يدعي انها حركة متمردة موجهة من الخارج ..

لكن اللجنة المركزية عقدت اجتماعها في موعده . واكتشف نوفوتني ان اكثريتها اصبحت ضده يضاف اليها نصف الاعضاء في المجلس الأعلى . رغم ذلك رفض أن يستقيل . واستمر الجدل ثلاثة أيام ، دون جدوى ، ثم رفعت الدورة الى الثالث من كانون الثاني بسبب الاعياد . خلال هذا الفاصل ، ظل الوضع يتطور لصالح المعارضين ، فخسر نوفوتني عددا من "أهل الوسط" في اللجنة المركزية ولم فريق لم يكن قد انحاز نهائيا بعد لأية من الجهتين . وفي ليلة الخامس من كانون الثاني تخلى نوفوتني ، بعد جدل عاصف ، عن مقامه كأمين أول للحزب محتفظا برئاسة الجمهورية .. وحين أعلن النبأ على الناس ، من حزبيين وسواهم لم يجدوا في أذهانهم ما يتيح لهم أن يفهموا شيئا مما حصل ... كان التغيير ، والحق يقال . قد تم "ديمقراطيا" اذ خضعت الاقلية للأكثرية ، لكن الديمقراطية مورست بين جدران قاعة تاريخية مقفلة .

ها هنا لم تكن مقاومة "المحافظين" من أتباع نوفوتني قد شلت تماما وان تكن قوتهم تضاءلت . فقبل الاستقالة وضع "ماولا" ، وهو عضو اللجنة المركزية المسؤول عن الجيش والشرطة ، و"سيجنا" ، وهو أمين التنظيم الحزبي في وزارة الدفاع ، وقد فر بعدها الى الولايات المتحدة ، صيغة قرار جاء يذكر "بأن الجيش يملك دبابات" وانه لن يرضى باستقالة الأمين الأول .. غير ان ضباطا كبارا آخرين نجحوا ، تحت طائلة انقسام الجيش في تعديل القرار ثم في تأجيل رفعه . ولم يعلن نوفوتني تخليه ، الا بعد ان حاول ايلاء المنصب لواحد من انصاره . لكن الرجلين — لوستوفيكا ولينارت — اللذين سمّاهما طالبا اختيار أحدهما ، رفضا المنصب وذهب لينارت الى حد اقتراح دوبتشيك رأس المعارضين ، بديلا لنوفوتني . وكان أن تراجع الفريق المعارض ، فانتخب دوبتشيك أمينا أولا بالاجماع وفرض عددا من مؤيديه لعضوية المجلس الأعلى .. أما نوفوتني ، فانه ، بعد أن خذل في اللجنة المركزية ، عاد فتذكر الجماهير واخذ ، وأنصاره ، يغوصون في حملة بين صفوفها على الحكم الجديد محاولا اقناع العمال بأن فريق دوبتشيك يرمي الى سلبهم جانبا من المكاسب التي حققوها . لكن دوبتشيك واصل من جهته حملة التطهير في الاجهزة القديمة من قيادة الجيش الى قوى الأمن الى رئاسة المجلس الوطني السلوفاكي الى رئاسة الجمعية الوطنية الى ادارة النقابات الى ادارة الشبيبة الشيوعية الى دائرة الايديولوجية الى عدد من ادارات الحزب المحلية ، الخ .. فضلا عن ذلك ألغى دوبتشيك الرقابة على الاعلام واطلق للمثقفين والطلبة والصحافيين العنان في توجيه النقد الى الطاقم القديم . اذ ذاك انهال على نوفوتني سيل من الانتقادات وقامت تنظيمات حزبية ،

لا عصر لها ، تدعوه للرحيل عن رئاسة الجمهورية . وفي الرابع عشر من آذار انعقد المجلس الأعلى نفسه الى السبعين فكان أن كتب الرجل استقالته عشية الثامن والعشرين بعد أن قام الى أن تخلى عنه الجميع وبينهم موسكو . ولم يلبث الفريق الجديد بعد حوالي شهر واحد أن وجه الى الرجل ضربته القاضية فأقاله ، وسبعة من رفاقه ، من اللجنة المركزية وألغى عضويته في الحزب بينما ينتظر الباقون أن تحين ساعتهم لدى انعقاد مؤتمر الحزب .

اذا صح ان الكتاب هم الذين أشعلوا الشرارة في مؤتمر حزيران ثم حسمت الجولة السياسية الكبرى باقالة نوفوتني من أمانة الحزب ، في اول هذا العام ، فان شهر آذار كان الشهر الحاسم في " الثورة السياسية " . فالحق ان اطلاق حرية النقد في الصحافة وبين صفوف المنظمات من حزبية ومهنية ، أفقد هذه الثورة شيئا من هدوئها . في هذا السباق كان الطلبة ، بعد الضربة التي تلقوها في الخريف السابق ، أول من التحق بصف الكتاب . فقد قاموا يطالبون بانشاء منظمة لهم مستقلة عن اجهزة الحزب ، دون ان ينسوا ، طبعا ، اعلان التزامهم بالاشتراكية " وهبت رياح التشكيك ، بعدها باتحاد الشبيبة الشيوعية الذي اخذت فروعه تستقل نهائيا وتغير قياداتها . وبادر فرع الاتحاد في براغ بتقديم مذكرة الى اللجنة المركزية طالب فيها بتوكيد حرية التعبير والنشر والاجتماع وباعادة الاعتبار الى ضحايا الفترة الستالينية — النوفوتنية والتعويض عليهم واقالة القضاة والمدعين العامين الذين نظموا المحاكمات الظالمة ومحاسبة المسؤولين السياسيين عنها أية كانت مناصبهم ثم بتطبيق برنامج الاصلاح الاقتصادي . وعلى الرغم من ان قيادة الحزب لم تترك فرصة الا ودعت فيها الى الاعتدال فانه لم يكن يبدو انها تحارب ما يجري بين الشبيبة والطلاب ، وان بدا هؤلاء راغبين في فك ارتباط منظماتهم بالحزب . بل ان المجلس الاعلى وجه في منتصف الشهر نداء دعا فيه منظمات الحزب الى سلوك طريق الديمقراطية وحيا روح المبادرة لدى الشبيبة والطلاب وحسهم السياسي . ثم عمد الطلاب فعلا الى تأسيس تنظيمهم الجديد ثم لحقت بهم فروع اتحاد الشبيبة والنقابات التي اخذت تقيل قادتها المفروضين عليها من قبل اجهزة الحزب في حومن الحيوية الحرة لم يعرف التشيكيون مثيلا له من قبل ... حتى ان اقبال الناس على متابعة الاحوال في الصحف ما لبث ان اوقع البلاد في ازمة ورق .

حملة الاقالة والاستقالة هذه — وقد تعظمت بعد ان غادر نوفوتنين رئاسة الجمهورية — الجمهورية — كانت ابرز ما جرى خلال اذار . اذ اذ خلت البلاد في نوع من "الثورة الثقافية" تقوم القواعد فيه بتسلم السلطة عنوة من قياداتها . في التنظيمات المحلية والمؤسسات . او تحطمها على الاستقالة او تصوت على نزع الثقة منها ، اذا كانت اقالتها تستوجب موافقة مرجع اعلى . ولم تبد المسألة على انها تغيير قيادات فحسب ، بل جاءت تغييرا للعلاقة بين التنظيمات المحلية او المؤسسات وبين الاجهزة المركزية التي كانت تتولى شؤونها في العهد السابق لذا اتخذت الحركة سمة التحلل من المركزية وتوكيد الشخصية المستقلة بحيث جاءت ، كما أشرنا ، جوابا على ضرورة حادة كانت خطة اصلاح النظام الاقتصادي قد طرحتها لأعوام خلت .

والحق ان لحاق الطبقة العاملة بالحركة جاء متأخرا بعض الشيء . فاذا كان قد تبين ان معظم العمال الذين أعلنوا ولاءهم لقيادة نوفوتني ، خلال المعركة كانوا موظفين في الحزب ، فان هذا لا يعني ان العمال العاديين ، من حزبيين وسواهم ، تحمسوا للحركة الجديدة . بل ان افادة العمال من الجو الجديد بقيت موضعية مبعثرة : هددت بعض نقاباتهم بالاضراب مطالبة بزيادة الأجور وتحسين شروط العمل ، أقالت قياداتها ، طرد العمال ، في بعض المصانع ، مدراءهم دون استشارة من عينوهم ، لكن

مدى الحركة السياسي ظل غامضا ، ان لم نقل مشبوها ، في ازدهارهم . حتى ان أحدهم قال لفاسشوليك ، معبرا عن رأي سائد : " لست أثر بهذه الحركة كلها ، وما يبدو لي هو انها حركة كتّاب . " هذا التنصل ، وان يكن نسبيا ، وضع في واجهة الحركة رغم انها احاطت بمشاكل البلاد كلها ، شعارين متلازمين ، لا يظهر لهما رجع واضح في وضع الطبقة العاملة ، هما شعار الحريات العامة وشعار اعادة الاعتبار لضحايا الستالينية وذيولها . وكلاهما تعبير عام عن تطلعات الأوساط القائدة في الحركة : الطلبة والمثقفين والحركات السياسيّة الملحقة بالحزب الشيوعي ، في الجبهة الوطنية دون انتماء اليه . واذا كان آذار الماضي قد شهد احتدام المطالبة باحقاقهما ، فانهما يظلان حتى الان أبرز ما حققته الحركة من تجديد على صعيد التشريع ، والثاني منهما - أي اعادة الاعتبار - كان شرط تكريس الأول .

اعادة اعتبار الضحايا هذه - أي تبرئة الموتى واطلاق السجناء ورفع العزل عن المعزولين الخ - بدت ، في جميع البلدان الشيوعية ، خاصة عقب المؤتمر العشرين علامة الرغبة في تطليق النهج الستاليني . لكنها تراوحت ، في جميع هذه البلدان بين تكريم البعض القليل وترك الاخرين لشأنهم في صمت . أما معاقبة المسؤولين عن المحاكمات المدبرة ، أيام ستالين ، فقد اتخذت ، غالبا ، شكل تصفية الحساب السياسي بغية التخلص من الخصوم ، بينما ظل الكثيرون من أهل المسؤولية البيّنة ، في المحاكمات - على رأسهم خروتشوف نفسه - يرتقون درجات السلم في الاحزاب الحاكمة .. يضاف الى هذا ان العديد من المحاكمات المشبوهة اجري بعد عام ١٩٥٦ وما زال يجرى حتى اليوم .. ولقد كانت تشيكوسلوفاكيا بين اشد الشقيقات الشيوعيات تخلفا في هذا المضمار . فنوفوتني نفسه ضالع ، بشكل ما ، في قضية سلانسكي وسرادها ، واللجنة التي شكلها الحكم الجديد للنظر في القضية اظهرت ان تجاوزاته شرعية ظل مستمرا حتى شهر تموز عام ١٩٦٥ . لذا وافقت بدايات الحرية انفجارا بين الضحايا ومشايعيهم لم يعد يعرف فيه ، على وجه التحقيق ، من هو المجرم الذي استحق عقابه ومن هو البريء المظلوم . ولم تحتم المسألة ان استغلت على جبهات عدة . فبعد ان قام سفيتاك - وهو فيلسوف سنعود الى ذكره - يعلن ان جان مازاريك - وزير الخارجية بعد الحرب - لم ينتحر ، عام ١٩٤٨ ، كما هو شائع بل قتله عملاء ستالين ، جاء من يشهد ان ميدوبان خص على اعتقال سلانسكي - امين الحزب التشيكي الاول - عام ١٩٥١ وأن " خبراء " سوفياتيين شاركوا في صياغة قرار اتهامه الذي وقع - عوض المحكمة - في مكتب الحزب السياسي نفسه وأدى الى اعدام الرجل ومعه عشرة آخرون عام ١٩٥٢ بينما كان ٢٨٠٠٠ ألف شخص يزجون في المعتقلات . ولم يكن ثمة مناص لهذه الحقائق ، وقد ثبت بعضها ، من أن تثير حفيظة الحكم السوفياتي على الاتجاه الجديد ، خاصة وان ميدوبان ، وهو بلشفي عجوز ما يزال شخصية مرموقة في الاتحاد السوفياتي رغم انه أقصي أو اعتزل . كذلك تأسس ناد للضحايا ، في مهرجان حاشد سمي نفسه نادي ٢٣١ (وهو رقم قانون حماية الجمهورية الذي جرت المحاكمات وفقا له) وما لبث ان تسلل اليه أناس معادون للحكم وجواسيس سابقون أملوا ان يجدوا فيه حماية ونفوذا ولم يخف أحد الخطباء في مهرجان التأسيس أن يقول ان جلاديه هم الذين يقومون الآن بصياغة برنامج الحزب . غير ان هذا كله لم يمنع البرلمان من ان يصدق في اواخر حزيران ، قانونا يعيد للضحايا اعتبارهم هو اول ما وضع من قوانين حول هذا الشأن في البلدان الشيوعية . طبعا رفض طلب النادي ان يتناول القانون جميع المحكومين الذين يدعي ان عددهم يبلغ ١٢٨ الفا وتقرر النظر في كل قضية على حدة ، وان كان الكثيرون من الذين قاوموا الحكم في سنواته الاولى ، قد أخرجوا من السجون دون أن يرد عليهم اعتبارهم . تبقى قضية التعويضات وما يقل عن ٢٠٠٠٠ كورون منها يدفع سلفا أما الباقي فيقسط على عشر

سنوات ، وهي قد تشكل عبئا لا يستهان بثقله على الاقتصاد الوطني . (الكورون يساوى حوالى عشرين قرشا لبنانيا) .. أما مسؤولية المسؤولين عن المحاكمات فيبدو ان عدد الاشخاص الذين تطالبهم من الضخامة بحيث يؤثر في حال طردهم ، على جهاز الدولة كله . لذا ارتئى ان يصار أول الأمر الى تطهير جهازى الأمن والقضاء على ان ينظر الحزب ، بعد أشهر ، في مسؤولية رجال السياسة .

وليس عجبا أن تظل هذه القضية أشهرا في مكان الصدارة بين أهداف الحكم الجديد ، ما دامت شرطا اولا لبلوغ الحريات الديمقراطية التي جعلها الحلم رأس أهدافه . فكيف يتاح لصحفي أو لسياسي أن يتخذ موقفا كلّف مثيله آخرين حياتهم أو حريتهم قبل أن يرفع عن هؤلاء ما الحق بهم من حيف ؟ لذا ترافق المطلبان اللذان بسطنا أولهما . أما الثاني فقد وضع ، كما قلنا ، موضع التنفيذ ، أثر انعقاد اللجنة المركزية في كانون الثاني ، كي يفسح ، باطلاق الصحافة من عقالها ، مجالا لكفي الجناح النوفوتني وعزلة وتثبيت الجناح المنتصر . واذا كانت حرية الصحافة قد أعادت اهتمام الرأى العام بها ، فان بعض الفرقاء وبينهم الاتحاد السوفياتي ودول حلف فرصوفيا الأخرى والجناح المحافظ في الحزب التشيكوسلوفاكي ، صعب عليهم أن يعودوا عيونهم على قراءة صحافة شيوعية تتخذ مواقف مغايرة لمواقف الحزب . فمهما ان توالت الحملات من الداخل والخارج تدعو الحكومة ، كلما شدت صحيفة عن الخط ، " الى اتخاذ التدابير اللازمة " . لكن الصحافة ، رغم كل شيء أباحت لنفسها أمورا كثيرة ، فنعت على الطاقم الجديد بطأه في احلال الديمقراطية ونبشت كل ما استطاعت نبشه من أحوال السنين الماضية وأكثرت من المقترحات ، بناءة وغير بناءة ، وتلذذت ، للمرة الاولى في تاريخ النظام بالدخول في جدل عنيف مع الرصيفات في موسكو وبرلين الشرقية .. أما هذه الهبّة ، لم يخف موقف قيادة الحزب من احراج . بيد انها رفضت العودة الى الرقابة مكتفية بالتحذير من مغبة التطرف ، مذكرة صحيفة الحزب نفسها بأن عليها أن تكون أكثر أمانة في نقل آرائه .. حتى اذا كان آخر حزيران صدق البرلمان قانون الغاء الرقابة المسبقة وهو يحمل رؤساء التحرير مسؤولية ما تنشره صحفهم ويخفف حوالي ٤٠٪ من ثمانية آلاف نقطة سياسية ومسدرية كان يمنع الاتيان على ذكرها في الصحف .

حريّة الصحافة هذه كانت أظهر مجالي "التحرير" لكنها ليست أهمها . فبعد ان نفضت تنظيمات الحزب والهيئات المهنية قياداتها المعيّنة مؤكدة استقلالها عن الجهاز المركزى ، قام من يقول بانشاء حزب للمعارضة ورفعت الأحزاب المنضمة الى الجبهة الوطنية رأسها تبغي التفلّت من بعض القيود التي تفرضها قيادة الحزب الشيوعي للجبهة وتشكل عدا نادى ٢٣١ ناد آخر هام هو نادى "اللاحزبيين الملتزمين " . ولقد أكد دوبتشيك مرارا عدة ان الحزب لن يتخلى عن دوره القيادى الذى يكفله الدستور ، لكن الحزب ارتضى توسيع الجبهة الوطنية بحيث تشمل جميع الحركات السياسية ولا تبقى في البلاد محظورات سياسية سوى الدعاية " الفاشية والشوفينية والقومية والمناهضة للشيوعية أو للاتحاد السوفياتي . " هذا كله لم يحل بين حزب الشعب الكاثوليكي وبين ان يطلب السماح له بفتح حوار مع الاحزاب الكاثوليكية في جميع البلدان (لا في البلدان الاشتراكية فحسب كما هي الحال الان) ولا بين الحزب الاشتراكي ، الذى كان وديعا جدا حتى زمن قريب ، وبين أن يعلن تصميمه على العمل ضد حكم الدستور الذى يمنح دور القيادة للحزب الشيوعي . هذا الحزب كان محظورا عليه العمل خارج المدن أو في المؤسسات ولم يكن ينهم في آخر كانون الثاني الماضي أكثر من ١١٥٠٠ منتسبا ، الا ان الحظر رفع فتلقى خلال أسابيع قليلة — كما ادعت صحيفة — مئات من طلبات الانتساب . بل ان الكنيسة

نفسها أبدت جذلها بحريتها الطازجة فقال توماسيك أسقف براغ في أعياد الفصح : " ان هذه سنة قيامة بعد سنين من الجمع الحزينة ! .. كذلك وصلت الموجة الى صعيد العلاقة بين المقاطعات أي الى طرح المشكلة السلوفاكية للحل بانهاء المركزية الحالية . وبعد الكثير من التردد بين الشكل الفدرالي المتساوى (أي الذى يعطي استقلالا ذاتيا للمقاطعات الثلاث) والشكل اللامتساوى (أي الذى يفصل وضع سلوفاكيا وحدها عن وضع المقاطعتين الاخريين بينما تبقى هاتان الاخيرتان على وحدتهما الحالية) ، أقر الشكل الاول في انعقاد اللجنة المركزية في آخر أيار بعد ان كان قد بدا منذ اشهر ان عملية "التحرير" لن تصل الى سلوفاكيا . فلقد اعلن بيلاك مرارا — وهو الذى حل محل دوبتشيك في أمانة الحزب السلوفاكي ، ان القديم في مقاطعته المتخلفة سيقى تقريبا على قدمه . ولم تكتم عدوى الديمقراطية الجديدة أن انتقلت الى البرلمان وهو مبدئيا ، معقلها الاول ، فانتخب سمركوفسكي رئيسا له بالاقتراع السرى ولم تتجاوز الاغلبية التي نالها ٦٣٪ . كان ذلك يحدث للمرة الاولى منذ عام ١٩٤٨ . ونشطت اللجان البرلمانية أيضا ، فلم تدع البيان الوزارى الذى قدمته حكومة تشيرنيك الجديدة في نيسان يمر ، كالعادة ، دون نقاش او تعديل . وتعددت الظواهر المشابهة في الاجهزة الاخرى ، من اللجنة المركزية الى أدنى التنظيمات .

الا ان النقطة المتعلقة بدور الحزب تبقى هي الاهم . فالتصريحات المتضاربة حولها كانت المأخذ الاكبر الذى أخذته الانظمة الشقيقة أو معظمها على الاتجاه الجديد في تشيكوسلوفاكيا . وهي التي شكلت أيضا أقوى الحجج في يد الفريق المحافظ الذى كان ينادى بالويل والثبور كلما أطلق تصريح يدعو الى التخفيف من تفرد الحزب الشيوعي بالسلطة . ولقد أطلقت في هذا الصدد تصاريح كثيرة ، لعل أشدها اثارة ما قاله الفيلسوف الانف الذكر سفيتان ، اذ كان يجول بين العمال في طول البلاد وعرضها ملخصا فصل ايمانه حول الحزب كما يأتي : " كونوا تلامذة ناقدين لكارل ماركس ... ولا تنسوا اذا ان هذا الرجل لم يدافع ابدا عن دور حزب من الاحزاب بما هو جهاز فوق الطبقة العمالية .. فان فكرة دور الحزب كجهاز نخبة ينشر الافكار بين الجماهير هي فكرة الشعبيين والروس ولينين ، وقد انتقدها ماركسيون كثيرون منذ الوقت الذى ولدت فيه .

"لا تنسوا ان ماركس أراد أن يوسع حقوق الانسان المدنية لا أن يلغيها . والايديولوجية المبنية على نظرية الحزب الذى يوجه الطبقة العاملة والشعب ويزرع فيهما افكاره الخاصة ، ليس لها علاقة بماركس ، لكن لها علاقة وثيقة بالتصفية المستمرة للافكار الناقدة وللحرية الانسانية ، بالرتابة المخدرة لدى عبدة ستالين . فاذا كانوا هم ماركسيين فلسنا بماركسيين واذا كنا نحن ماركسيين فليسوا بماركسيين " . هذا الفيلسوف الذى يبث هنا بذور الشقاق بين ماركس ولينين ليس هو في الحزب الشيوعي وليس هذا طبعا مجال الرد المفصل عليه . نلاحظ فقط انه يضع نفسه خارج التاريخ ولا يقيم وزنا على الاطلاق للضرورات التي لبتها نظرية الحزب عند لينين . لكن ما هو اوقع من رأيه تعاطف بعض المسؤولين التشيكيين من رؤوس الفريق الجديد معه . فقد اقتصرت معارضة تشيزار لانشاء حزب معارض على الالماح الى ردة الفعل الخارجية (السوفياتية خاصة) التي يمكن ان يلقاها مثل هذا التغيير اذ قال : ان انشاء حزب معارض امر لن نرتضيه لان الدخول في صراع حول النظام ، حاليا ، أمر مضر بالتجربة التي يجب ان تنجح " ... مثل هذا القول ، اذ يصدر عن واحد قد يكون بين اهم الاقطاب المجددين يعني ، دون كثير من المواربة ، ان قيام حزب معارض يتمثل في البرلمان أمر وارد ، لكنه مؤجل الى ان تثبت التجربة قدمها . أما دوبتشيك فقد اختار الوقوف في

منتصف الطريق بين نوفوتني وسفيناك . فهو يرتئي تنشيط الأحزاب الداخلة في الجبهة الوطنية الموسعة وبث حرية الرأي داخل الحزب وخارجه لكنه ، كما سلف ، شدّد دائما على " ان دور الحزب القائد هو الشرط الأول لتطور المجتمع اشتراكيا " مضيفا ان الشيوعيين لا يطمحون الى التفرد بادارة المجتمع لكنهم يريدون المهام اتجاهها . هذا وقد رفضت اللجنة المركزية في انعقادها ، في آخر آيار أن تسمح للحزب الاشتراكي — الديمقراطي الذي كان الحزب الشيوعي قد امتصه عام ١٩٤٨ ، بالعودة الى العمل ولو داخل الجبهة الوطنية .

مرة أخرى نذكر بأن الطبقة العاملة لم تبد — أول الأمر خاصة — كثيرا من الحماس للحركة . لكن تحقيقا أجرى في آخر أيار أظهر ان ١٧ ٪ من السكان فقط يجدون ان هناك خطرا على النظام الاجتماعي بينما يرى ٤٠ ٪ ان هذا الخطر غير واقع ويعتقد ٣٠ ٪ ان القوى غير الاشتراكية لا تشكل شيئا ذا أهمية في البلاد . وفي غمرة النقاش حول الحريات واعادة الاعتبار للمظلومين أعلن العمال في مصنع بيزاك انهم ابهم ساعة واحدة ، في آواخر آذار ، مطالبين بادارة ذاتية في المصانع . والحق ان أوتاشيك ، مبدع خطة الاصلاح الاقتصادي والمشرف الان على تنفيذها ، بوصفه نائبا لرئيس الوزراء ، كان قد ردّد مرارا رغبة في انشاء مجالس منتخبة تتولى تسيير المؤسسات الصناعية تسييرا ذاتيا . لكنه كان ثمة رأيان حول الصلاحية التي يصح أن تولى لهذه المجالس : فهي اما ان تنتخب المدراء فتجب اذ ذاك اعادة النظر في التخطيط المركزي — وهي اعادة حاصلة — واما ان تمسي مجالس استشارة لا تملك حق التقرير فلا تلبث ان تموت .. ولقد أقر انعقاد اللجنة المركزية في اخر ايار الشكل الاول وهو سيوضع موضع التنفيذ في اواخر هذا العام اى بعد مؤتمر الحزب الرابع عشر ومعه يدخل النظام الفدرالي الجديد مجال التطبيق ويعلن قانون الانتخاب الجديد الذي يرمي الى تعزيز مكانة البرلمان ، وهو قانون سنعود الى ذكره .

نوجز : مؤتمر الكتاب في حزيران ١٩٦٧ أطلق الشرارة اذ عزّز النقمة في صفوف المثقفين وأوصل صداها الى قواعد الحزب . انعقاد اللجنة المركزية في تشرين كشف للمرة الأولى وجود معارضة قوية في القيادة لا تخشى التعبير عن رأيها . انعقاد كانون الأول ثم كانون الثاني حسم الجولة الكبرى اذ أقال نوفوتني من أمانة الحزب الاولى وأطلق "الثورة الثقافية" في وجه المقاومة النوفوتنية وهي الثورة التي بلغت أوجها في آذار . انعقاد نيسان (الأيام الأولى من الشهر) بنت الاتجاه الجديد . اذ عدل تكوين المجلس الاعلى واوصى باقامة حكومة جديدة وصاغ برنامج الحزب الذي اوجزناه ورفع السرعن الحالة الاقتصادية وعمل على ضبط "المبالغات" التي شابت الحركة ونشر اخيرا لا آخرا ما تم خلاله من نقاش ، الخ .. انعقاد آيار (الأيام الاخيرة من الشهر) شهد اشتداد المقاومة النوفوتنية مع تزايد الضغط السوفياتي واضطر ، بعد طرد نوفوتني من اللجنة المركزية وتعليق عضويته في الحزب ، الى تقديم موعد المؤتمر حتى الخامس والعشرين من أيلول المقبل (بعد ان كان محددا عام ١٩٧٠) وذلك حينما رفض فريق نوفوتني في اللجنة أن يستقيل طوعا . كذلك اعترفت اللجنة بحق الاضراب وكرست انشاء المجالس العمالية وقانوني الصحافة واعادة الاعتبار اللذين صدقا بعد ذلك في البرلمان ودعت الجبهة الوطنية الموسعة الى صياغة برنامجها المشترك . يبقى ان مؤتمر أيلول وقد بدأت اجتماعات المناطق تمهد له منذ أسابيع ، سيكون الحدث الاهم في تاريخ تشيكوسلوفاكيا الجديدة . أما جدول اعماله فهو تطوير برنامج العمل واقرار النظام الفدرالي المتساوي وتعديل نظام الحزب الداخلي وانتخاب لجنة مركزية جديدة . اذ ذاك تتحدد ملامح النظام القائم فيتغيّر شكل العلاقة بين المقاطعات ويتحول دور العمال في وحدات الانتاج ثم يصار الى اجراء انتخابات عامة ، هي الأولى من نوعها في بلد شيوعي ، يضع الحزب

نفسه فيها موضع التقييم مثبتا انه لم يعد يخاف من النامن بعد ان اخاف اكثرهم طوال اعوام عشرين .

× × ×

"ان المسائل المطروحة في تشيكوسلوفاكيا تهدف الى تجاوز النواقص وتقوية دور الحزب القائد وتطوير أسلوب العمل ومناهجه في الحزب وتحسين طرائق وصول المعلومات من أعلى أسفل ومن أسفل الى أعلى وتنمية الديمقراطية الاشتراكية " . بهذه العبارات المرتبكة أشارت البرافد ، أول مرة ، الى احداث تشيكوسلوفاكيا ، وذلك في منتصف آذار . و"الثورة الهادئة " تطلق رياحها على البلاد ، بعد ان كانت الاوضاع التي ادت اليها قد انكشفت منذ حوالي ثلاثة أشهر ، وسمع المواطنون السوفييت تفاصيلها من الاذاعات الاجنبية . غير ان البرافدا ، اذ ارتضت أخيرا ان تتكلم لم تعد تصمت الا لماما . فهي قد نشرت بعد أيام تحقيقا يقول فيه عمال تشيكيون انهم يستخيئون بثلاثة نجوم لا تطفأ : الحزب الشيوعي والاشتراكية والصداقة مع الاتحاد السوفياتي . ثم انتقدت ، أول مرة العناصر المعادية للاشتراكية وأشادت بالذين يقاومونها في أواسط نيسان ، وعندما لخصت "برنامج العمل " ، حذفت منه جميع التغييرات الخاصة بالرقابة وقوى الامن والمحاكم والسفر الى الخارج . ثم جاءت ذكرى ميلاد لينين فاذا بالهجوم على التحريفية الجديدة والقوميّة والاعتماد على القوة الذاتية ينضاف الى الحملة على "ماو" ويطال الرشاش ، تلميحا كوبا والفيفارية . ولم يلبث عيد ميلاد ماركس الـ ١٥٠ أن أطل ، فوقف سوسلوف ، منظر الحزب الأكبر ، يندد بكل ما يشتم منه ريح التجديد في الحركة الشيوعية مشيرا ، دون لبس وان بلا تسمية ، الى المنحرفين في تشيكوسلوفاكيا في خطاب عليه مسحة دينية مدهشة . بعدما توالى السجال بين صحف البلدين من تحذير وجهة تامر الى من شكوا في انتحار مازاريك الى مقال في الازفستيا يعلن ان "التحرير" و "الديمقراطية " تغطية لالغاء دور الحزب القائد الى هجمات على بروشاسكا نائب رئيس اتحاد الكتاب ثم على تشيزار مسؤول الحزب عن الشؤون الثقافية بسبب اعلانه ان الفهم اللينيني للماركسية ليس الفهم الوحيد الممكن ، الى مهرجانات في المصانع السوفياتية تصدى لها الصحف ، تأييدا لرسالة بعث بها البعض من أعضاء الملشيا التشيكية — وهي منظمة أسكت دوبتشيك بعض الاصوات التي طالبت بحلها — يندد دون فيها بما يلحقه بعض صحافيين بلادهم من أذية بالصداقة بين البلدين .. الخ .. ولم يكن التشيكيون يسكتون عن هذا كله فالصحف ترد وبروشاسكا يرد وتشيزار يرد وفاتشوليك ينعى على الحركة في بلاده بطأها فينسبة الى الخوف من الاتحاد السوفياتي ، ويجمع سبعين توقيعا على نداء من الفي كلمة تنشره مجلة الكتاب ، يعلن ان الموقعين سيقفون خلف حكومتهم والسلاح في ايديهم اذا اقتضى الامر طالما هي تقوم بما انتدبت له ، ثم يدعو الى التظاهر والاضراب والمقاطعة وانشاء اللجان لارغام المحافظين النوفوتنديين على الانسحاب .. هذا النداء ، خاصة ، اثار ردودا عنيفة في اوساط الحزب والحكومة وشجبه كبار المسؤولين بكثير من الشدة ، بعد أن أدانوا ، ألف مرة ، أثناء الحملة ان الحكم الجديد وفي العهود البلاد مع الاتحاد السوفياتي وسائر الدول المنتمية الى حلف فرصوفيا ، وان كان يريد ان يبني تجربة خاصة توفق ما بين النظام الاشتراكي والتراث الديمقراطي الطويل الذى تملكه تشيكوسلوفاكيا ثم يطرحها انموذجا لا بد ان يرى الاخرون محاسنه فيما بعد .

ولم يكن حظ اللقاءات الرسمية بأقل من حظ السجال الصحفي . فبعد سفرة برجنيف الأولى الى براغ في كانون الأول ، عاد اليها مرة أخرى في شباط يشارك في العيد العشرين لتسلم الحزب زمام السلطة رغم ان وفود الدول التي دعيت الى الاحتفالات لم يكن فيها شخصيات من صفه . ثم ذهب تشيرنيك وبيبيش من الجانب التشيكي الى موسكو في آذار ، حيث نالوا في ما يبدو موافقة القيادة السوفياتية على اقالة نوفوتني من رئاسة

الجمهورية وطمأنوها الى ولاء الطاقم الجديد في براغ . ثم جرى اجتماع قمة لدول الحلف في صوفيا كانت غليته المعلنة تدارس شوون الحلف . ثم انعقد فجأة موتمر قمة آخر في درسدن بألمانيا الشرقية ، حوالي الخامس والعشرين من آذار ، أعلن انه سيبحث المشكلة الالمانية والعلاقات الاقتصادية ، لكنه كان من الثابت انه مخصص لمناقشة الوضع في تشيكوسلوفاكيا ، اذ تغيبت عنه رومانيا ، نظرا لموقفها الخاص الذى لا يشجعها على المشاركة في محاكمات من هذا النوع ، قد تكون هي المتهمة في مثلها ذات يوم . فضلا عن ذلك لم يخف دوبتشيك هذه المرة ان الحلفاء قلقون بسبب الاستقلال الذى تتعرض له التجربة على يد عناصر معادية للاشتراكية . ولم يعد خافيا ، بعد ما اثاره الموتمر من جدال في تشيكوسلوفاكيا وتوكيد استقلال البلاد في سلوكها ان الخلاف قد بلغ من الحدة درجة ذات شأن . ثم اضطر دوبتشيك وكبار رفاقه امام تفاعل الحملة على نحو امس ينذر بالانفجار أن يحطو ذات ليلة من أوائل ايار ، في الثانية بعد منتصف الليل ، على مطار موسكو ، في زيارة بقيت سرا حتى ابتدائها . وذلك بعد ما رشح ان برجنيف ، كان قد أبدى ، قبل ايام ، في خطاب حزبي لم ينشر ، قلقه من الاحداث قائلا ان المكاسب الاشتراكية تتعرض من جرائها للخطر في الديمقراطيات الشعبية جميعا وان دوبتشيك ، رغم اخلاصه ، محاط بالرجعيين المعاديين للشيوعية . ولم يذكر البلاغ المشترك الصادر على أثر الزيارة سوى امور تقليدية لكن دوبتشيك حاول لدى عودته طمأنة الرأى العام معترفا بالقلق الموسكوفي . وفهم ان مناورات مناورات الحلف في تشيكوسلوفاكيا عادت فأوت بعد ان اجلها موتمر درسدن . ولم يطل الامر سوى ايام قليلة بعد ذلك حتى كان قادة الاحزاب الحاكمة في بولونيا وهنغاريا وبلغاريا وألمانيا الشرقية والاتحاد السوفياتي (تغيبت رومانيا مرة أخرى) يلتقون في موتمر قمة جديد بدا ، رغم التكتم ، انه قد بحث وضع تشيكوسلوفاكيا في غيابها . هذا بينما كان تسيرنيك ، رئيس الوزراء التشيكي ، يكتب مقال تطمين في الاز وبعض العسكريين السوفييت يحضرون الاحتفالات بذكرى التحرير الثالثة والعشرين ، فيحولها التشيكيون الى تظاهرة صداقة بين البلدين . بعد ذلك جاء غرتشكو ، يريد ان يتعرف الى القيادة العسكرية الجديدة ثم تبعه مباشرة كوسيغين الذى اقام عشرة ايام مستشفيا في الريف ، عقد خلالها محادثات بدت واعدة على الصعيدين السياسي والاقتصادى ، اذ قيل ان قرضا سيمنح لتشيكوسلوفاكيا قدره مائتا مليون دولار بالذهب والعملة الصعبة ، يعيد اقتصادها على النهوض وان ٣٠٠ الف طن ستضاف الى حصة القمح التي تستوردها سنويا مما يوفر عليها ٢٤ مليون دولار كانت تستورد بها قمحا كنديا ، كما بدا ان الحملة المضادة عليها ، في موسكو وبعض العواصم الشرقية الاخرى قد خفتت اما من الجانب التشيكي فقد غلب الاعتدال في التدابير الداخلية على انعقاد اللجنة المركزية في آخر ايار تحاسبا لايقاظ الازمة النائمة ، رغم ان الحكومة نفسها ظهرت وكأن دخول قوات الحلف التي جاءت تقوم بلمناورات ، قد اخذها على حين غرة ، اثناء انعقاد اللجنة ، فلم تستطيع ان تعلن عنه ، كما تقضي العادة ، ولو قبل اربع وعشرين وساعة ... لكن الازمة عادت فانفجرت مع حملة كونستنتينف — وهو ستالين عتيق — على لشزار ورد هذا الاخير عليه . وجاءت في اعقاب ذلك زيارة كادار امين الحزب المجرى الى موسكو ، وكان دوبتشيك وتشيرنيك قد زارا قبلها بأسبوعين دابست حيث جددا معاهدة الصداقة بين البلدين واستمعا من كادار الى حصيلة اجتماع الخمسة السابق في موسكو . في نهاية هذه الزيارة وقف برجنيف يخطب مذكرا بالحملة على بودابست عام ١٩٥٦ ، وهو حدث يتحاشى السوفياتيون عادة ، شر العودة اليه ، قائلا ان الاتحاد السوفياتي الا ان يهتم " بمصير بناء الاشتراكية في الامم الاخرى وبقضية الاشتراكية والشيوعية المشتركة " . ولم يستنكف كادار عن التجاوب فقال : " ان نضالنا نحن وتجربة البلدان الاشتراكية الاخرى تظهر ان صراع الطبقات يحتدم ، في ظروف معينة ، فيتخذ أشكالا اشد تعقيدا . وايا كان البلد الذى يدور فيه النضال ،

فان الحزب الهنغاري يتنا من دون تحفظ مع الشيوعيين ، مع اولئك الذين يدافعون عن سلطات الطبقة العاملة وعن قضية الاشتراكية ضدّ التكلس والتحريف والعدو الطبقي . "
ثم أضاف : " نحن مستعدون لتقديم معونة أمميّة لهم . " هذان الخطابان هما اللذان مهّدا في أوائل تموز للانفجار الذي أحدثه مؤتمر فرصوفيا الأخير وهو الذي ما زالت تفاعلاته تترى ونحن نعدّ هذا المقال . فلقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يلمّح فيها مسؤولان ، من أرفع مستوى ، في الكتلة السوفياتية بتدخل كالذي عرفته هنغاريا عام ١٩٥٦ . هذا ولا ننسى ان مؤتمرين تمهيديين قد عقدا في بودابست ، خلال الأشهر الماضية (في شباط ونيسان) معظم الأحزاب الشيوعية ذات الولاء السوفياتي ، كان موقف الوفد التشيكي — على نقيض الوفد الروماني وسواه — مشابها فيهما ، على وجه التعميم ، للموقف السوفياتي ، وان كانت تشيكوسلوفاكيا قد طالبت في ثانيهما ، دون نتيجة ، بنشر النقاش وقبول وفدين عن حزبي الهند واسرائيل اللذين لا ترضى عنهما موسكو (في كل من الهند واسرائيل حزبان شيوعيان) وأبدت تفهما لتمنع يوغسلافيا عن حضور المؤتمر ما دام العديد من الأحزاب لم ينقض الادانة التي تعرض لها هذا البلد في مؤتمر موسكو عام ١٩٦٠ . هكذا أظهر التشيكيون بعض الاستقلال في تفهمهم للعلاقات بين الأحزاب الشيوعية ، لكن خط سلوكهم الاساسي ظل متجاوبا مع الوشائج التي تشدهم الى الاتحاد السوفياتي .

ومهما يكن من شيء فان ضجيج المؤتمرات والاجتماعات التي توالت ، وما زالت ، ابان الحركة التشيكية لم يخل من أثر مزعج في نفوس الجماهير التشيكوسلوفاكية التي بدت ملتفة حول الحركة مصممة على السير في ركابها ، خاصة بعد ان اتضح للعيان عمقها واتساعها . ذلك ان تشيكوسلوفاكيا ، قبل أي شيء ، دولة اشتراكية قامت شعوبها من ويلات النازية أمرّها وهي تذكر — رغم الحيف الستاليني — فضل الاتحاد السوفياتي في تحريرها وحمايتها وضمان مستقبل الاشتراكية فيها وقد أثبتت التحقيقات الاخيرة ان معاداة الاتحاد السوفياتي تكاد تكون معدومة بين جماهيرها (١٦١ ٪ من السكان فقط يؤيدون مزيدا من الاستقلال عن السياسة الخارجية السوفياتية) . لذا لم يقبل التشيكيون — رغم عهدهم بالتدخل — أن يقود الاتحاد السوفياتي مثل هذه الحملة الهائلة على حريتهم . حتى قال أحد الكتاب لمراسل صحيفة فرنسية ، وكانت احداث فرنسا في اوجها حينذاك : تصوّر ان جونسون ، أمام الأحداث في فرنسا ، أخذ يلح على ديغول ، يطلب منه تفسيرا ويذكر بالخطر الشيوعي والأمن الأطلسي وانه نظم مناورات في بلجيكا وأرسل وزير دفاعه في جولة تفتيشية الى باريس ونائب الرئيس همفري مستشفيا في فيشي ، ثم طلب من بومبيدو ألا يتراجع أمام مطالب المضربين ودعا الى مؤتمر قمة لحلف الأطلسي كي يناقش الأوضاع في باريس : ذاك هو تقريبا ما حصل لنا . "
والمقارنة ، وان كانت مفرطة ، تعبّر عن استياء عميق لا شك ان كثيرا من التشيكيين قد شعروا به من جراء التدخل السوفياتي ، خاصة وانهم لم يدركوا دائما ظروف هذا التدخل ومراميه " .

أما الأسباب الظاهرة التي علل بها السوفياتيون موقفهم فهي ، على رغم كونها لا تخلو من وجاهة ، تبقى غير كافية لتعليله . قالوا ان الاشتراكية مهددة لأن الحزب التشيكوسلوفاكي يحرّف دوره القيادي للحزب وان الصداقة بين البلدين مهددة لأن اصواتا معادية لها ترتفع في تشيكوسلوفاكيا وان موقف التشيكيين في الحقل الخارجي قد يصل الى اعلان حيادهم بعد الانفتاح على الغرب والاعتراف خاصة بألمانيا الغربية . والواقع ان هذه صورة محرفة كثيرا للموقف التشيكي . فالحزب هناك يواجه الديمقراطية كما سنرى ، من موقع قوة ، وهو يرى ان خير ما يفعله ان شاء كسب الرهان على الديمقراطية هو ان يقبل هذا الرهان . ثم ان الصداقة بين البلدين أمر لا يرى التشيكيون صالحا لهم في انهائه . فقادة الحركة يدركون تماما ، كما ركسيين ، انه لا حياد مع

الاشتراكية [1] وان مستقبل نظامهم لا ينفصل عن سياستهم الخارجية وما يريدون ان ينهوه هو وجوه التبعية المتعددة ، على الصعيدين الاقتصادي والسياسي في في علاقتهم مع الاتحاد السوفياتي . يبقى ان الأصوات المعادية للاتحاد السوفياتي وهي لا تمثل قوة تذكر ، قد خلط بينها وبين تلك التي ارتفعت تفضح الستالينية ، في العهد الماضي ، فكشفت أمورا اعترف السوفياتيون انفسهم بكثير من مثالبها بعد المؤتمر العشرين . أما الانفتاح على الغرب والاعتراف بألمانيا الغربية قبل أن تعتبر اتفاقية مونيخ لاغية منذ عقدها وتعترف بحدود أودرنيس ، ولا فرار من الغرب الا بعد أن تستقصى ظروفه السياسية ويرفض السوفياتيون رد ما يدينون به للتشيكيين عملة صعبة لا غنى لهؤلاء عنها ان شاؤوا انهاء صناعتهم . ثم ان رومانيا اقامت علاقات تجارية مع المانيا الغربية دون شروط وخالفت سياسة الاتحاد السوفياتي تجاه اسرائيل — يخشى السوفياتيون أن تحذو تشيكوسلوفاكيا حذوها في هذا المضمار ايضا — وانفتحت على الغرب ورفضت المجيء الى اجتماعات قمة ثلاثة وانسحبت من مؤتمر بودابست ، لكن هذا كله لم يحمل أحدا على تهديدها بالقمع العسكري . كذلك لا يخلو اتجاه موكزار ، نجم بولونيا الصاعد ، من شوائب قومية ولا سوفياتية ولا سامية أيضا . الا انه يقمع في بلاده تحركات الطلاب والكتاب وسائر الفئات المطالبة بالديمقراطية فيستمر صاعدا والسوفياتيون صامتون . ما الذي يحكم موقف الاتحاد السوفياتي من تشيكوسلوفاكيا الجديد اذا ؟

لا مجال طبعا للتقليل من الأهمية التي تعلقها موسكو على تماسك الكتلة الشيوعية وولاء دولها وأحزابها غير المشروط وخاصة على تماسك حلف فرصوفيا والمنظمة الاقتصادية الشيوعية (الكومكون) وفي قلبهما ما سمته موسكو بالمثلث الحديدي ، تدليلا على صلابته وتلاحمه (بولونيا ، تشيكوسلوفاكيا ، ألمانيا الشرقية) . بيد ان ما يصعب التسليم به هو ان الاحداث التشيكية تشكل خطرا على التماسك وان كانت تشكل بلا جدال خطرا نسبيا — لا يفوق الخطر الروماني — على سياسة الرأي الواحد والولاء غير المشروط . لا بد اذا أن يكون ثمة ما هو أدهى ... الأدهى هو ان الانموذج التشيكي الجديد يريد لنفسه أن يكون أنموذجا معديا ، وهو فعلا كذلك شاء أم أبى ، ثم هو يبرز الى النور في ظروف تعيشها جاراته ، وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي ، لا تخلو من أن تكون مثار احراج . ذلك هو بيت القصيد . فالحزب السوفياتي يخوض منذ أعوام حملة شعواء على جناح واسع فيه يتقدمه فريق لامع من الكتاب والمثقفين تجمع بين تطلعاتهم وتطلعات رصفائهم التشيكيين قرابة وايدة . فهم أيضا يريدون الغاء الرقابة وتصفية الستالينية تصفية كاملة . هذه الحملة قد بلغت ذروتها خلال العامين المنصرمين ، وكان من تجلياتها محاكمات لا تختلف كثيرا عما كان يجرى في أيام ستالين أبرزها محاكمة دانييل وسنيافسكي ثم محاكمة غينزبورغ . أما التهم فكان مدارها نشر الأدب المحظور بتوسط بعض المنظمات الروسية الموجودة في الخارج . هذه المحاكمات التي اختتمت غالبا بأحكام بالغة القسوة أثارت على الحكم السوفياتي كثيرا من الغبار في الداخل والخارج . وكان أن أجاب الحكم على النداءات والعرائض ومختلف مظاهر التأييد للمحكومين التي صدرت عن المواطنين السوفياتيين بالتعقبات والعقوبات ، حتى بلغ تعداد الذين طردوا من صفوف الحزب عام ١٩٦٧ خمسين ألف عضو حسب ما أوردته مجلة "حياة الحزب" السوفياتية نفسها . والطرد من الحزب وان كان لم يعد يعني النفي أو دخول السجن ، فانه ما زال يعني أشياء كثيرة . ذلك ان المطرود يحال بينه وبين ان يتولى أية مسؤولية هامة في مكان عمله ، فاذا

---

(١) يوغوسلافيا لم تعلن حيادها مختارة وانما طردت طردا من الكتلة الاشتراكية وأساء ذلك كثيرا الى وضعها .

رافق طرده من الحزب اخراجه من منظمة المهنية ، حرمه عليه تعاطي مهنته علنا ، اى ان الكاتب المطرود من اتحاد الكتاب مثلا ، يخطر عليه نشر اثاره . وما يلفت النظر هو التفاوت في الكفاءة بين المثقفين الذين يقودون حركة التجديد ومثقفي الجناح الموالي للسلطة . فراس المجددين الحاطين على الجمود والرقابة هو سولجنتين وهو واحد من أبرز القصاصين في العالم اليوم . اما المحافظون فيقودهم اناس من طراز ميخالكوف شاعر " النشيد الوطني " الذى استعان به ستالين عن النشيد الاممي ثم منعه المؤتمر العشرون . هذا وقد رافق الاضطهاد الكتاب — لم تعد آثار سولجنتين مثلا تنشر في الاتحاد السوفياتي منذ سنوات — تنظيم حملة انضباط ايديولوجية واسعة النطاق قادها برجنيف بنفسه وخصصت لها اللجنة المركزية معظم اهتمامها في انعقاد نيسان الماضي واشترك فيها العديد من الجهات المسؤولة عن الايديولوجية في الحزب والصحافة . ولم يصعب على اى مراقب ان يلاحظ التراقق البين بين الدعوة الى الانضباط وغايتها نوع من الرقابة الذاتية يربى عليه المثقفون من جهة وبين الهجوم على التجربة التشيكية خاصة وعلى سواها من ناحية اخرى . فقد كانت هاتان النقطتان تشكلان محورين هما في النهاية محور واحد لسائر الخطب والابحاث ذات الطابع الايديولوجية في الحزب السوفياتي ، خلال الاشهر الماضية . حتى بدا لكل ذى عين ان تعدد الزيارات والاجتماعات والمؤتمرات التي جرت بغية الضغط على تشيكوسلوفاكيا والتدابير والخطب والمقالات التي تناولت المثقفين العصاة ليست ، في الواقع سوى وجهين لخشية واحدة .

ما هي هذه الخشية ؟ لم يخاف القادة السوفياتيون ان تسلك بلادهم — ودول كتلتهم الاخرى — ذلك الطريق الذى سماه التشيكيون " الديمقراطية الاشتراكية " يبقى السؤال مطروحا ! وضخامته تجعل الاجابة عليه هنا امرا غير ذى محل . لكن علينا رغم كل شيء ان نشير الى مدار الجواب ولو ايتسرناه . البيروقراطية السوفياتية المركزية دخلت ، مع ولوج الاصلاح الاقتصادى الجديد مضمار التطبيق طور الانحلال . كانت البيروقراطية وليدة " الخطة " واداتها وكانت " الخطة " سيدها المدلل . " الخطة " أحدثت بالضرورة ، في بلد متخلف ، انقطاعا بين البيروقراطية والجماهير ، فولدت من جراء ذلك السلطة الوحيدة التي يسعها ان تكفل تحقيقها ، اى البوليس . ذلك ان " الخطة " كانت ترمي ، خلال عقود كاملة ، الى تنمية وسائل الانتاج ولم يكن في وسعها ان تشبع حاجات الجماهير الفعلية بين مراميها القريبة . لكن " الخطة " بثت بذور التحول في ذاتها على نحوين : فهي اولا قد أنمت وسائل الانتاج على وتيرة جعلت استمرار التنمية يفيق في الاستهلاك ، ومن ثم استمرار التسلط على الجماهير ، امرا مستحيلا ، وهي ثانيا قد جعلت المركزية وبيروقراطيتها ، بسبب هذا النمو الهائل في وسائل الانتاج ، امرا مستحيلا ايضا ، لان استمراره يتسبب في اشنع انواع التبذير وفي مشاكل لا حصر لها على صعيد الادارة . اما الحزب فكان يضطلع بمهمة الوسيط بين البيروقراطية والجماهير . كان اداة التخطيط السياسية . فهو يضطهد البيروقراطية والجماهير ويمحن فيها تعديلا وتصفية ليمنعها من تكريس استقلالها عنه ، وهو يضبط الجماهير بالدعاية والتحريك وخلق الاساطير (وعبادة ستالين مثلا) وان كان لا يستطيع التعبير عن مصالحها المباشرة ، فيبقى معها ، في النهاية ، على علاقة متناقضة . كانت هذه هي الستالينية : بيروقراطية التخطيط وتفرض ، بتوسط الحزب ، الذى يراقبها ، دكتاتورية البروليتاريا على جماهير فلاحية معادية ، ولا تستكف ، وهي في موقعها المتميز ، ان تمنح افرادها بمختلف الامتيازات ، تقتطع من حصتها من فائض القيمة الذى تتولى ادارته . لكن ما المحنا اليه من نموها ئل في وسائل الانتاج فرض اصلاح الاقتصاد الذى عبر عن نفسه بالتحول في طبيعة الخطة . دخلت المركزية في طور نهايتها فكان لا بد ان تخل معها ادائها اى البيروقراطية . يبقى ان نسأل ان كانت البيروقراطية ، ومعها التسلط ، ستترك الساحة دون مقاومة . طبعا لا . بل هي من ناحية ، تعيق تطبيق الاصلاح جذريا ، ما وسعها ذلك ، فترفض السيطرة على مجالس التسيير الذاتي ، وهي من ناحية اخرى ، تخوض ، بتوسط الحزب ، الذى اكتسب تكوينا معينا يتيح ذلك ، معركة ايديولوجية حامية الوطيس ، لان الميدان الايديولوجي هو ميدانها الاخير بعد ان اخذت تفقد شيئا فشيئا شروط وجودها في البنية الاقتصادية . ذلك هو مغزى الحملة التي يشنها

ايديولوجية حامية الوطيس ، لان الميدان الايديولوجي هو ميدانها الاخير بعد ان اخذت تفقد شيئا فشيئا شروط وجودها في البنية الاقتصادية . ذلك هو مغزى الحملة التي يشنها الحزب السوفياتي على مثقفيه وذلك هو العامل الرئيسي في خشيته من عدوى التجربة التشيكية . لكن ولاء الحزب البيروقراطية لم يكن في يوم من الايام ، ولاء مضمونا . ومن يدري ؟ فقد يكون هنالك فريق معارض في قيادة الحزب السوفياتي ، يحالف مقتضيات الوضع الجديد فيفجرها متى اكتمل نمو هذا الوضع فالراهن ان احدا ، في الخارج ، لم يكن يعرف شيئا ، قبل الخريف الماضي ، عن وجود الفريق الذي تسلم اليوم دفة السلطة ، في قيادة الحزب التشيكوسلوفاكي ... الا اننا ، ها هنا ، لا نتعدى نطاق الافتراض .

× ×

× ×

سمعنا كادار يعلن امام برجنيف انه مستعد " لتقديم معونة امنية لهم " .. للشوعيين " الحنفاء " من انصار نوفوتني ، للستالينيين . وان يتذكر ساعتها " المعونة الامنية " التي قدمها له خروتشوف فمكنه من حل " المجالس العمالية " التي كونتها الطبقة العاملة المتمردة عام ١٩٥٦ . لكن الموقف الهنغاري من الحركة التشيكية لم يكن على هذه الحدة ، قبل ذلك بأيام . ومواقف الدول في اوروبا الشرقية تفاوتت وتغيرت ، خلال الازمة وفق اعتبارات متشابكة ففي بولونيا كانت الحكومة خلال آذار غائصة في صدام مع الطلاب واساتذة الجامعة في فرصوفيا . ولم تجد ما تفسر به حركتهم — على السنة العربية في التحليل — الا ان تنسب اصولها الى الصهيونية . والحق ان موقف بولونيا من اسرائيل بعد عدوانها في حزيران ، اثار حفيظة اليهود وسوادهم على نموغومولكا ، خاصة وانه لم يسمح لهم بالتعبير عن وجهة نظرهم الخاصة في المسألة . ولم يكن الحال مختلفا في تشيكوسلوفاكيا وهي التي كانت واحدة من " عرابات " اسرائيل عام ١٩٤٨ وقد حارب رجال العصابات الصهيونية باسلحتها . لكن نسبة الاحداث في بولونيا — او في تشيكوسلوفاكيا — الى الجدال حول العدوان الصهيوني ، هي كنسبة اثر اللغم الى الفتيل وهي ، على حال ، مخرج مريح اتاح لغومولكا ان يتناس مسؤولية الحكومة في وضع المتمردين . اما مطالب الاساتذة والطلاب فكانت تتلخص في الديمقراطية داخل الجامعة وفي احقاق حرية التعبير والتجمع والتظاهر التي يكفلها الدستور وتحول دونها الحكومة . واما رد الحكومة فقد كان غاية في العنف : فرقت التظاهرات بالقوة واستقال العديد من اساتذة الجامعة وموظفيها واستؤنفت بشدة متزايدة حملة تصفية داخل الحزب كانت قد بدأت في اعقاب العدوان الاسرائيلي ، حتى بلغ عدد الذين طردوا من الحزب كانون الاول بين العام واواسط نيسان ثمانية الاف عضو وفق تصريح مستشار الحكومة الصحفي . ولم يوفر التطهير جمعية الادباء ولا العاملين في السينما ، بل ولا بجهاز البدبلوماسي . الا ان ما تميزت به الفترة المذكورة هو صعود موكزار ، قطب حركة " الانصار " ووزير الداخلية . فقد وقعت عليه طبعا مهمة القمع وبدا ان قوته تتزايد في الحكم ، كلما تقدم في اداء مهمة . وحركة " الانصار " هذه مكونة خاصة من مقاومي الغزو النازي خلال الحرب الاخيرة ، وهي لهذا لا تخفي نزعتها القومية وتعادي الماركسيين : " الستالينيين " الذين لم يقع على عاتقهم الكثير من شؤون المقاومة ولكنهم تسلموا رغم ذلك معظم مقاليد السلطة بعد الحرب ، تحت وطأة الضغط السوفياتي ، واليهود الذي ينازعون الانصار امجاد العداء للنازية لان العديدين من بينهم ماتوا جوعا في " غيتو " فرصوفيا وابيد معظمهم في المعسكرات النازية . ولقد امس موكزار في الايام الاخيرة عضوا في مجلس الحزب الاعلى مما يؤيد ترشيحه لخلافة . هكذا فان الخلاف مع المثقفين والطلاب واليهود الذين يعطفون على اسرائيل واستغلاله في معركة السلطة ما لبثا ان انعكسا على الموقف البولوني من تشيكوسلوفاكيا . والواقع ان التشيكيين لم يقفوا متفرجين على حملة الاضطهاد في بولونيا . بل ان كلية الفلسفة في براغ ذهبت الى حد دعوة البعض من الاساتذة المغضوب عليهم لالقاء محاضرات فيها .

وكان هذا التصرف وسواه حجة في ايدى البولونيين فراحوا يكيلون التهم للقيادة الجديدة قائلين ان الاشتراكية في خطر وان الاتجاهات المشبوهة ترمي الى اقامة دكتاتورية المثقفين على العمال ومهادنة النازية الصاعدة في المانيا الغربية. ولم يلبث الجدال الصحفي ان احتدم بين الفريقين خاصة انه قد صب على البولونيين ان يميزوا بين راى الحكومة التشيكية التي لم تذكرهم بسوء وبين راى الصحافة الفرحانة بحريتها الجديدة. هكذا شارك البولونيون في سائر الاجتماعات التي دعى اليها السوفييتيون لممارسة الضغط على تشيكوسلوفاكيا، بينما ظل هؤلاء متكتمين على حملة شبيهة بالحملة التي يقومون بها عندهم رغم ان الفريق الذى يقودها لا يكن لهم ولاء مطلقا. والخلاصة ان ربيع ٥٦ البولوني، وهو الذى جاء بغومولكا الى الحكم، في طريق التصفية. والانصار ما زالوا، حتى الان، يعتمدون على غومولكا، في وجه "الستالينيين" واليهود ويقمعون بحجة معركتهم مع هؤلاء حركة القوى الديمقراطية. حتى ان الطلاب، بعد اضرابهم في اذار، عادوا الى كلياتهم بهدوء في اعقاب عطلة الفصح لانهم ادركوا ان تمردهم يخدم فريقا سياسيا يعادونه. لكن الاعتماد على غومولكا قد لا يطول. والتناقض يزداد حدة بين وضع يمتص ربيع الحرية (١٩٥٦) وبين وضع خرافي تشيكوسلوفاكيا) مجد هذا الربيع ووجد فيه سابقة يحتذيها ويصل بها الى مآلها الاقصى.

ماذا عن الدولة الثالثة في المثلث الحديدى: المانيا الشرقية؟ هذه الدولة هي اشد الدول ولاء في حلف فرصوفيا للاتحاد السوفييتي لانها اعمق تلك الدول ارتباطا به. فهي لولا الدول الاشتراكية تعيش في عزلة دولية مغلقة، ولا تعترف بها الدول الامبريالية ولا الدول الدائرة في فلك الاستعمار او المحايدة. والمانيا الغربية، جارتها الامبريالية القوية، لم تهضم وجودها بعد وهي لن تتورع عن امتصاصها اذا سنحت الفرصة. لذا فان دول الكتلة السوفييتية هي مجال حياتها الاقتصادية الاساسي والقوة التي تحميها، عبر انتمائها الى حلف فرصوفيا والكومكون. فالديمقراطية فيها امر بعيد المنال لانها مضطرة الى الحفاظ على انضباط حديدى في الداخل امام الحصار الامبريالي الخارجي. وهكذا وقفت المانيا الشرقية موقفا متحفظا ثم معاديا من الحركة التشيكية. فبعد ان اكتفت صحافتها اول الامر بنشر ما يصدر عن الفريق التشيكي المحافظ اول الامر، قام المسؤول الايديولوجي هاجر يعدد ما افادته صحافة المانيا الغربية من الوضع التشيكي الجديد في هجومها على الحزب الالماني الشرقي. هذا الموقف احدث عاصفة فعلية بين البلدين ظلت تتردد اصداؤها طويلا في الصحافة والتصريحات الرسمية. ويوم نشر الحزب التشيكي برنامج عمله تحت عنوان: "الطريق التشيكي الى الاشتراكية"، كتب احد اعضاء اللجنة المركزية في المانيا الشرقية "هونيكر" مقالا في الازفستيا يعلن فيه انه ليس هناك طريق الماني الى الاشتراكية. وفي اوائل ايار كان هناك نشرة دوارة تقرا في اجتماعات الحزب تقول ان مسالة تشيكوسلوفاكية لم تعد تخص هذه الدولة وحدها بل امست خيانة لحلفائها، ولا تستبعد ان تطبق الدول الاخرى في حلف فرصوفيا بعض الاحكام الخاصة في الميثاق فتعمد الى تدخل قد يكون عسكريا وهو سيكون جماعيا على اى حال. وقد عدلت الحدنة التي احدثتها زيارة كوسيغين الى براغ بعد ذلك من موقف برلين الشرقية. لكن احتدام الغيظ السوفييتي من جديد، لم يلبث ان اعاد اولبريخت الى موقف العداء الذى يفرضه عليه مجمل الوضع في بلاده.

نعود الى كادار. كان موقفه معتدلا اول الامر. ذكرت صحافة الحزب في هنغاريا بان نقد الاخطاء، عام ١٩٥٦، قد تحول سريعا الى "نقد للحزب والنظام"، مما ادى الى ما هو معروف. ثم اعلن كادار في لهجة تضامن الهنغاريين مع الحزبين البولوني والتشيكي في آن معا (رغم التناقض)! وكلفه الخمسة المجتمعون في موسكو بعد ذلك بمناقشة رايهم مع القيادة التشيكية. ثم ذهب تشيرنيك ودوبتشيك الى بودابست آملين ان يجدا بعض التفهم لدى زعيم شيوعي حنيف. والحق ان كادار لم يكن حنيفا دائما فبعد ان اضطلع بمهمة حصان طروادة ١٩٥٦، اضطر لدى استقرار الاوضاع ان يتنازل حول بعض النقاط امام الذين كان قد سحقهم قبل ذلك. فبدا في اوائل الستينات حركة "تحرير" محجولة ذات قرابة بعيدة بالحركة التشيكية. الا ان هذه الحركة، التي نال اثناءها تزايدا كبيرا في شعبيته، مالبثت، امام التخوف السوفييتي خاصة، اختنقت في المهد. لذا فان كادار، لم يقف بادئ ذى بدء موقف الاستنكار من الربيع التشيكي. بل لعله كان يامل، اذا توطد الوضع في تشيكوسلوفاكيا ان يقود حركة رصينة في بلاده. والمرجح انه قد بذل

جهدا ما لتهدئة الغضبة السوفييتية . لكن تلك الغضبة كانت اقوى من هدوئه في النهاية فاغضبته عوضا ان تهدا . وكان ما ذكرناه في خطابه امام بريجينيف .

جيفكوف البلغاري جاء الى براغ في اواخر نيسان ، ووقع ايضا معاهدة صداقة . لكنه في الوقت نفسه ابدى تجاوبا مع حملة الانضباط الايديولوجي التي اطلقها بريجينيف . وحينما امسى مؤتمر الكتاب البلغاريين على الابواب ، حيا فيهم المكتب السياسي البلغاري "بالمبادئ الطبقية وخط الحزب" . ثم لم تمض ايام على عودة جيفكوف من براغ ، حتى كان هناك نشرة دوارة في اجتماعات الحزب ، لا تختلف كثيرا عن النشرة الالمانية الشرقية وتلوح مثلها بالتدخل العسكري . وحينما افتتح مؤتمر الكتاب فعلا في صوفيا وقف عميدهم سنوبانوف فادى طقس الهجوم على الصين ثم مال الى تشيكوسلوفاكيا وحمل على الذين يحاولون ادخال الديمقراطية الى حرم الماركسية اللينينية . وكان هذا ايذانا بان شيئا لن يتغير في بلغاريا وبان هذه الاخيرة لن تألو جهدا لوقف التغيير على الارض التشيكية .

اما رومانيا فقد كان لا بد لها ان تقف من التشيكيين موقف التاييد . فهي على الرغم من عضويتها في حلف فرصوفيا وفي الكومكون قد طفقت ، منذ زمن تبتعد كلما سنحت الفرصة عن اجماع الكتلة السوفييتية مؤكدة على استقلال رايها في ما تتخذه من مواقف على الصعيد الخارجي ، راغبة ، عبر هذا التوكيد في تنويع علاقاتها الاقتصادية بحجة بناء الشيوعية الوطنية . وكان من مبادراتها انها رفضت ان تحذو حذو الدول الشرقية الاخرى في قطع علاقاتها مع اسرائيل وانسحبت من مؤتمر بودابست الاول عندما انتقدها خالد بكداش ثم رفضت المجيء الى المؤتمر الثاني ، وتراوحت في انفتاحها الاقتصادي بين المانيا الغربية والصين مرورا بفرنسا . كل ذلك اثار ، بطبيعة الحال ، استياء الاتحاد السوفييتي . الا ان هذا الاستياء كان ينقصه كي يتفجر عامل اساسي : النموذج الاشتراكي المعدي . فرومانيا تقدمت تكوسلوفاكيا بشوط طويل في مجال توكيد الشخصية الوطنية ، بينما ظلت متخلفة عنها اشواطا في مجال التغيير الداخلي . حاول شاوشسكو ، في الواقع ان يجاري القيادة التشيكية في مضمار "التحرير" ، فرد الاعتبار ، في اواخر نيسان ، لعدد من قادة الحزب الذين كانوا قد لاقوا مصيرا مظلما ، خلال الفترة الستالينية . لكن المحاولة ظلت "فوقية" على النسق الخروتشوفي ، فلم يسبقها ، او يتبعها ، نقاش مفتوح في اوساط الحزب والراي العام يؤدي الى تغييرات فعلية في اسلوب القيادة واشخاصها ، كما جرى في تشيكوسلوفاكيا . ولعل تشاوشسكو طوق بهذا التدبير المجتزأ بعض التناقض بين شجبه لضغط خارجي على التشيكيين يخشى ان يكون هو ضحيته لمثله وبين تخوفه من الاقتداء بالتجربة التي تضامن معها . على ذلك ، قاطعت رومانيا سائر المؤتمرات — المحاكم التي عقدت لارغام تشيكوسلوفاكيا على التراجع .

هذا ما كان عليه الموقف في كل من دول الكتلة السوفييتية . بقيت دولتان من دول اوروبا الشيوعية ، لا تدوران في فلك الاتحاد السوفييتي ، نوجز موقفهما بكلمة . فيوغوسلافيا ايدت الثورة الهادئة في تشيكوسلوفاكيا ، لان تاريخها كله ، منذ اصبحت دولة اشتراكية ، يعدها لهذا التاييد . ذلك لانها عانت من وطأة الحرم الستاليني ، قبل سواها ، مما اضطرها في اول الخمسينات الى طلب المعونة الامريكية والدخول في حلف مع تركيا واليونان . ثم انها كانت اول دولة اشتراكية تبني نموذجا مختلفا عن النموذج السوفييتي يقوم على التسيير الذاتي الذي تتجه اليه تشيكوسلوفاكيا الجديدة . وعلى الرغم من ان العلاقات بينها وبين الاتحاد السوفييتي قد تحسنت تدريجيا منذ عهد خروتشوف ، فان قيام تجربة مستقلة في بلد مجاور ، تشابه من حيث استقلالها ، رغم الفوارق تجربتها الخاصة بهما ، تهدد استقرارها الداخلي ويقوي موقفها في الخارج — في العالم الشيوعي خاصة بعد تضعضع معسكر الحياد الذي كانت بين قادته . اما البانيا ، ذات الاتجاه الصيني فلم يتجاوز رد فعلها اللفظية المعتادة ، اذ اعلنت ان اهل التحريف في الاتحاد السوفييتي هم الذين ولدوا اهل التحريف المتفوقين في تشيكوسلوفاكيا .

لا ننسى اخيرا موقفا بالغ الاهمية اتخذه حزبان شيوعيان خارج الحكم في اوروبا الغربية : الحزب الايطالي والحزب الفرنسي . فلقد سارع الشيوعيون الطليان الى تاييد الربيع التشيكي

اذ وجد وافيه تلبية لخط كانوا هم بين الاولين في تحديد معالمه . ذلك ان الحزب الايطالي قاد منذ زمن طويل حملة على التكلس في صفوفه ، وقدم للحركة الشيوعية ، في غرب اوروبا ، تراثا لا تقاس به الصلوات الطقسية التي تتردد في امكنة اخرى . وكان توليياتي ، قبيل وفاته ، قد شدد في وصيته الشهيرة على " تعدد المراكز في الحركة الشيوعية وانتقد مؤتمر موسكو الذى كان على ابواب الانعقاد عام ١٩٦٤ ، اذ راى فيه استكمالا لاخراج الصين نهائيا من العالم الاشتراكي بسبب اختيارها خطا خاصا بها ، وطالب بنقد معمق للفترة الستالينية تستخرج منه الخطوات اللازمة لتصفيتها . تضاف الى هذا الاطار العام ، ظرف كان يجتازه الحزب ، حين برزت الحركة التشيكية هو ظرف التهيؤ للانتخابات النيابية . فلقد راى الحزب في تاييد الحركة التي شددت على الحريات ، فرصة لاجتذاب الوسط اليسارى الى تقارب انتخابي وراى الى ذلك في هذا التاييد ، فرصة لتنشيط الحزب نفسه ، فاكد ، في آن معا ، على الدعوة التشيكية الى تجديد الحزب وتقريب الجبهات الاجتماعية المختلفة التي يسعها تدعيم الحركة ، الى جانب توكيده على اعلان التشيكيين لما يطرحه الدفاع عن الاشتراكية وتنميتها من ضرورات ديمقراطية . وكان لويجي لونغو ، زعيم الحزب ، بين الذين زاروا براغ في اوائل ايار ليشد ازر التشيكيين ويضع في خدمتهم تجربة حزبه الديمقراطية .

هذا ونحن لم نستطع العثور على عناصر كافية نحدد بها موقف الحزب الفرنسي من بدايات الحركة التشيكية . لكن النشاط الاخير الذى قام به فالديك روشيه في اعقاب الانتخابات الفرنسية يعطي صورة كافية الوضوح عن هذا الموقف . ذلك ان السلاح الامضى الذى واجهت به الرجعية الديغولية الحزب الفرنسي ، خلال الازمة ثم في الانتخابات الاخيرة ، كان سلاح التباكي على الحريات التي سوف تخنق اذا ما وصل اليسار الى الحكم . والحق ان ما يلوح به الديغوليون وسواهم لجماهير الوسط الفرنسية هو النموذج الستاليني الذى قام في ظروف لا قرابة ، على الاطلاق ، بينها وبين ظروف المجتمع الفرنسي الحاضر . لذا يخدم قيام نظام ديمقراطي اشتراكي في تشيكوسلوفاكيا قضية الشيوعيين الفرنسيين خدمة جليلة . فهو يثبت ان الطبقة العاملة تستطيع ، في بلد متقدم ، ان تقود ، ضمن جو من الحرية ، مروحة طبقة واسعة ، معطية هذه الحرية مضمونا انسانيا يختلف اساسا عن مضمون الحرية البرجوازية ، وهي لا تعدو ان تكون حرية الصراخ في وجه الاستغلال دون الغائه . النظام التشيكوسلوفاكي اذا مرشح ، اذا عاش ، لان يصير قطبا تسير اليه جميع القوى الاشتراكية في غرب اوروبا .

× × ×

هكذا نكون قد وضعنا الاحداث التشيكية ، بعد ان عرضنا ما عدلى نحوله حاولنا معين من التماسك في قلب الموجة التي نشرتها عبر القارة . . . كذلك بينا خاصة خضوع ردود الفعل التي تشكلت منها هذه الموجة لشبكة معقدة من الظروف الواقعة ، تحاول الاستتار خلف توكيدات ايديولوجية تقدم نفسها على انها مطلقة . لكن الاحداث لا تفضح اصولها ومراميها الا اذا استنطقت وفق منهج صالح . لذا نرانا مسوقين الى كشف البنية المتحركة التي تمخضت عن هذه الثورة الهادئة ثم الى ان نعمل ما في وسعنا الى تحديد الافق الذى تتحرك نحوه هذه الثورة ، وذلك عبر نقاط ثلاث نتناولها بالتحليل . . .

في العدد القادم :
القسم الثاني : الاطار ـ القسم الثالث : الافاق .

× × × × × × × × × × × ×

تشيكوسلوفاكيا : خطوة الى الامام وخطوتان الى الوراء ؟

أولا : الاحداث

في الحادى عشر من نيسان الماضي نشرت الصحافة التشيكية " برنامج عمل " تبنته لجنة الحزب الشيوعي المركزية في اجتماعها المنعقد قبل ذلك بأيام . هذا البرنامج ، وهو يقع في ٢٤٠٠٠ كلمة ، جاء ثمرة جهد جماعي بالغ الاتساع اذ شارك في صياغته ، بصورة أو اخرى جميع اهل النظر في اللجنة المركزية ، وقدم بشأنه ما لا يقل عن ثلاثة آلاف ملاحظة أو اقتراح ، اثناء انعقادها . كذلك أثرت الاحداث المتسارعة نفسها في نصه ، فكان ان عدل مرارا بمقتضاها ، قبل ان ينشر ، حتى جاء خلاصة اولى لمجرى الاحداث ، لها دون شك ما بعدها . والواقع ان ما نص عليه البرنامج ، لا يذهب بعد ، " بالثورة الهادئة " في تشيكوسلوفاكيا الى اقصى مداها ، بل ان علينا ان ننتظر مؤتمر الحزب الرابع عشر ، وموعده في ايلول المقبل ، قبل ان يتخذ الاتجاه الجديد ، هناك ، صيغته النهائية ، في برنامج يصدر عن المؤتمر ، فيقنن تفصيلا ، هذا الاتجاه الذى لا نملك الان سوى خطوطه العامة .

اما الامور التي تستوقف النظر في هذا البرنامج ، فيسعنا تحدادها على النمو التالي :

أ — يعالج البرنامج معالجة جديدة مسألة العلاقة بين " امن الدولة " والمعتقدات الشخصية من سياسية وسواها فينص على ان " لكل مواطن ان يكون على ثقة تامة من ان معتقداته وآراءه السياسية وايماناته ونشاطاته الشخصية لا يمكن ان تكون موضع اهتمام من قبل الاجهزة المولجة بأمن الدولة . ويعلن الحزب بوضوح ان هذه الاجهزة لن تدخل ولن تستعمل في حل المسائل والمجادلات السياسية الداخلية في المجتمع الاشتراكي " .

ب — يضع البرنامج وجهة جديدة لسياسة الاعلام ويضمن حرية الكلمة ، مقدما لتدابير اتخذ بعد نشره بأيام فألغى الرقابة المسبقة على مواد الصحف . يقول : " انه ليس من الممكن ان نصين ، وفق تأويل اعتباطي يصاغ من موقع السلطة ، ما هي الانباء التى يمكن ايصالها الى علم الشعب العامل وما هي الآراء التي يمكن التعبير عنها علنا . "

ج — يكفل البرنامج سائر الانظمة الخاصة بمنع الهجرة ، فيصرح بحرية التنقل " الدستورية " متيحا لكل مواطن ان يقيم في الخارج وفق رغبته ، فترات طويلة او اقامة دائمة ، دون ان يعد ذلك ، من ناحية عملا معاديا للدولة فيوضع في صف الفئة المغضوب عليها من " المهاجرين " . لكن هذا النص يترك للحكومة مجال العمل على منع " هرب الادمغة " اى اجتذاب الفنيين الى بلدان أخرى .

د — ينص البرنامج على ان النقاش حول قانون ما او تدبير ادارى تتخذه اجهزة الدولة ، امر يقع ضمان الشرعية فيه على القضاء الذى يعمل دونما تأثير بالعوامل السياسية ولا يعتبر نفسه ملزما الا امام القانون .

هـ — يكفل البرنامج استقلال الفنون والثقافة عن تأثير الدولة واجهزتها تاركا للعاملين في هذا المضمار ان يتخذوا من القرارات في شأنه ما يرونه ملائما .

و — يعلن البرنامج ، في شأن السياسة الخارجية ان التحالف والتعاون مع مع الاتحاد السوفياتي وسائر البلدان الاشتراكية سوف يظل " الاتجاه السياسي " في السياسة التشيكية . لكنه يضيف ان ذلك ينبغي ان يتم وفق مبادئ " السيادة والمساواة والاحترام المتبادل والتعاون الدولي " ثم يعلن ان تشيكوسلوفاكيا " سوف تصوغ وجهة نظرها الخاصة حول المسائل الاساسية في السياسة العالمية " .